

أضواء البيان

. @ 197

والحديث الثاني لبيان مبدأ وجود الإنسان في الدنيا وأنه يولد على الفطرة حينما يولد .
أما مصيره فبحسب ما قدر الله عليه . .
وقد نقل القرطبي كلاماً للزجاج وقال عنه : هو أحسن الأقوال ونصه : إن الله خلق الكافر ،
وكفره فعل له وكسب ، مع أن الله خلق الكفر وخلق المؤمن . وإيمانه فعل له وكسب ، مع أن
الله خلق الإيمان . والكافر يكفر ويختار الكفر بعد أن خلق الله إياه ، لأن الله تعالى قدر ذلك
عليه وعلمه منه ، لأن وجود خلاف المقدر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل . .
قال القرطبي : وهذا أحسن الأقوال ، وهو الذي عليه جمهور الأمة اله . .
ولعل مما يشهد لقول الزجاج قوله تعالى : { وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ }
. .
هذا حاصل ما قاله علماء التفسير ، وهذا الموقف كما قدمنا من مأزق القدر والجبر ، وقد
زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام ، ويتأمل النص وما يكتنفه من نصوص في السياق مما قبله
وبعده : نجد الجواب الصحيح والتوجيه السليم ، وذلك ابتداء من قوله تعالى : { لَهُ
الْمُلْكُ وَلَهُ الْخَزَايِعُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . .
فكون الملك له لا يقع في ملكه إلا ما يشاء ، وكونه على كل شيء قدير يفعل في ملكه ما
يريد . .
ثم قال : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ
وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } . ثم جاء بعدها قوله تعالى : { خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } . فخلق السماوات والأرض وخلق
الإنسان في أحسن صورة آيتان من آيات الدلالة على البعث ، كما قال تعالى في الأولى : {
لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَصَوَّرَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } . وقال في
الثانية : { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ
خَلْقٍ عَلِيمٌ } .